الخيار الوحيد الباقي

هاني أبو أسعد

قبل أن نتأمّل ما قد يَحْدث في لبنان عقب وقف إطلاق النار، علينا أن نَنْظر إلى ما حَدَث فعلاً حتى هذه اللحظة الراهنة. فالولايات المتحدة وإسرائيل وحلفاؤهما قد شَنَّت، في ذروة قوتها العسكرية والاقتصادية والسياسية، حربًا على المقاومة في لبنان بهدف تدميرها وجَعْلِ لبنان حليفًا لمخطّطات تلك الدول في المستقبل. ولقد تلقّت إسرائيل دعمًا شاملاً ـ تكنولوجيّاً، وديبلوماسيّاً، وإعلاميّاً، إلخ... ـ من قبل حلفائها، بمن في ذلك بعضُ الأنظمة العربية، وبعض الدعم الداخلي من لبنان نفسه واستخدم الإسرائيليون كلَّ الإمكانيات المتوفّرة لديهم. لكنّهم لم يَنْجحوا رغم ذلك.

أكان في استطاعتهم فعلُ المزيد؟ الجواب الواضح هو لا. فلو كان في استطاعتهم ذلك لفعلوه. لقد كان واضحًا أنّ الخيار الأوحد الباقي أمام إسرائيل هو استئنافُ قتل المدنيين اللبنانيين وإلحاقُ المزيد من الدمار بالبنى التحتية اللبنانية لكنّ المقاومة أَثْبتتْ قدرتَها المذهلة على مواجهة الخيار الإسرائيلي؛ بل لو قُصِفتْ أماكنُ محدّدةٌ في بيروت لقَصَفت المقاومةُ تل أبيب على الأرجح ولهذا أَوْقف الإسرائيليون اعتداءاتهم، إذ تبيّن أنّ هجومَهم البرّي فَشِلَ فشلاً ذريعًا، وتواصَلَ سقوطُ صواريخ المقاومة على إسرائيل

لقد كان النموذجُ الذي أرستْه المقاومةُ بسيطًا إنِ استخدمتم تقنيتَكم وسلاحَ جوّكم لاستهداف لبنان، فسنردّ براجمات صواريخ متحرّكةٍ وغيرِ مرئية، ملحقين بكم أذًى فادحًا. أما على مستوى الهجوم البري، فسنواجه كل ما ترمونه على لبنان بمعرفةٍ دقيقةٍ بطبيعة الأرض، وبمقاتلين متمرّسين غير هيّابين، وبأنفاقٍ سريةٍ وشبكةِ اتصالاتٍ لا يستطيع العدو ضبطَها ولا الوصولَ إليها. والأهمّ أنّ الشعب اللبناني أَثْبتَ استعدادَه للوقوف ضدّ العدوان ولتقديم التضحيات المطلوبة لقد نجح نموذجُ المقاومة، إذن، في حين فشل النموذجُ الإسرائيليُّ القائمُ على التفوق العسكري

إنّنا، بالطبع، متألّمون لضحايا الاعتداءات الإسرائيلية ولعائلاتهم. غير أنّ إعادةَ بناء لبنان أثر هذا الدمار لن تكون مهمةً مستحيلةً. فالاقتصاد اللبناني قبل المعركة الأخيرة كما نَعْلم لم يكن مساويًا، مثلاً، لاقتصاد انكلترا الذي كان سيتطلّب عقدًا لإعادة بنائه. ثم إنّ الجهودَ المبذولةَ لإعادة إعمار لبنان يُمْكن الآن أن توجَّه لبناءِ اقتصادٍ أقوى وأكثر عافيةً ـ اقتصادٍ واثقٍ بوسائل دفاعِه الوطنية.

إنّني لا أعتقد أنّ إسرائيل ستهاجم لبنانَ في المستقبل، بالرغم ممّا يُقال اليوم عكسَ ذلك ـ ومعظمُه حربٌ نفسيةٌ تَهْدف إلى إشعار اللبنانيين باللاأمان واللاثقة بالنفس. ومردُّ اعتقادي يعود إلى سببٍ بسيط، وهو أنّ الهجوم الإسرائيلي الأخير تضمّن كُلَّ شروط النجاح اللازمة كما ذَكَرْنا ـ من دعمٍ أميركيٍّ، ودعمٍ شاملٍ من قِبل المجتمع الإسرائيلي، وتواطؤٍ من بعض الأنظمة العربية، وتفوقٍ إسرائيلي ساحق بالمعدّات العسكرية، وأصواتٍ من داخل لبنان تعادي المقاومة ـ ولكنّه فَشِلَ رغم ذلك. وعليه، فإنّ أيَّ عاقلٍ لن يحاول أن يُعيد الكرّةَ، وتصعيدُ الموقف يعني توسيعَ القتالِ واحتمالَ استخدام أسلحة الدمار الشامل ـ وهذا ليس خيارًا متاحًا لأنّه سيهدّد المصالحَ النفطية العالمية ويَجْعل بالمقابل دمارَ إسرائيل الكامل احتمالاً أكثرَ رجحانًا

لهذا السبب يمكننا الثقةُ بأنّ لبنان سيكون قادرًا على بناءِ اقتصادٍ يُشْعِر المستثمرين بالأمان. ويزيد من هذا الاحتمال أنّ تمويلَ إعادة بناء لبنان لن يَقْتصرَ على المقاومة وحدها، إذ سيتهافت فرقاء عديدون لنيل ذلك الفضل، ولاسيّما مَنْ يريد الحفاظَ على تأثيره وحفظِ ماء وجهه في لبنان بعد أن تخلّى عن دعم المقاومة في اللحظة الأولى.

السؤال المهمّ هو: كيف نقوم ببناء لبنان أقوى وأكثر عافيةً؟ الحقّ أنّنا مازلنا في هذه اللحظة عند مفترق طرق. فإحدى طرق التفكير تؤكّد أنّ العربَ غيرُ قادرين على قتال الغرب بسبب كلفة هذه القتال الباهظة ـ «واليد التي لا تستطيع كَسْرَها، قبّلْها وادعُ عليها بالكَسْر (كما يقول المثل). ولذا على العرب أن يَسْتخدموا «الدعمَ الغربي» لإعادة بناء الشرق الأوسط والمثالان الواضحان على طريقة التفكير هذه هما مصر والأردن

غابرييلا بوليسوڤا — الضاحية أولمرت رمز الموت

أما طريقُ التفكير الثانية فتشجِّع المقاومةَ حتى يَنْفضَ العالمُ العربيُّ عن نفسه الأنظمةَ الفاسدةَ الحاكمة، ويحقِّقَ الاستقلالَ الحقيقي، الذي تَتْبعه إعادةُ بناءٍ مستندةٌ إلى تجاربنا الخاصة ومصالحنا الذاتية

المفكّرون المنطقيون سيتّخذون، في رأيي، الخيارَ الثاني، وذلك لأسبابٍ عدة السبب الأول هو أنّ العراق يقدِّم مثالاً ساطعًا على ما يَحْدث حين تُلقى كُلُّ مسؤوليات إعادة البناء على كاهل القوى الغربية ولكنْ حتى لو تناولْنا حالةً أقلَّ تطرُّفًا، فهل يريد أيُّ بلدٍ حقّاً أن يقلِّد مصرَ أو الأردن؟ فالحال أنّ العلاقة بين هذيْن البلديْن من جهة و«الرمز الأبويّ» (إسرائيل والولايات المتحدة) من جهة ثانية تذكِّر بالعلاقة التي تَرْبط الولاياتِ المتحدة بدول أميركا اللاتينية أكثرَ ممّا تذكِّر بالعلاقات التي تَرْبط دولَ أوروبا بعضَها بعضًا ذلك أنّ قطاعًا صغيرًا محدَّدًا من ذَيْنك المجتمعيْن (مصر والأردن) قد غدا وكيلاً للرمز الأبوي، وقد يزداد ذلك القطاعُ غنًى غير أنّه سيَخْلق ـ على المستوى الأعظم ـ سوقَ عمّالٍ رخيصةً لصالح اقتصاد ذلك الرمز الأبوي فمصر مثلاً، بعد ٢٥ عامًا من اتّباع تلك السياسة، ما زالت تَمْلك أعلى نسبةٍ من الأميّة في الشرق الأوسط إذن، لماذا يَجْدر بأيٍّ كان، والحالُ هذه، أن يقتدي بالنموذج المصري؟ هل غدتْ مصرُ ذاتَ اقتصاد عالميٍّ رائدٍ في ربع القرن الأخير؟ من الواضح أنّ اتّباع الدولِ طريقَ التفكير هذه يؤدِّي إلى أن تصبح معتمدةً على الفتاتِ الذي يلقيه إليها أسيادُها في الخارج ولم يَحْدث في التاريخ أن احترم السيِّدُ خادمه؛ فَمَنْ شبَّ على شيءٍ شاب عليه!

سببٌ هامٌّ أخيرٌ لاختيار خيارِ المقاومة، وهو أنّ النظام الاقتصادي/الاجتماعي ـ السياسي الغربي الذي يَرْتكز عليه خيارُ الاندماج العولمي مليءٌ هو نفسُه بالعيوب ويعاني أزمةً داخليةً حادّة. فكلما ازداد الاقتصادُ الأميركي غنًى مثلاً، ازدادت المظالمُ الاجتماعيةُ: فهناك ثلاثةُ ملايين بلا مأوى، وثلاثون مليونًا يعيشون تحت خطّ الفقر، والأرقامُ تَكْبر كلّما ازداد الأغنياءُ غنًى. أضِفْ إلى ذلك أنّ المجتمعات الرأسمالية الغربية لم تعطِ جوابًا حقيقيّاً للأسئلة البيئية الفادحة الخطورة، وهي أسيرةُ دوّامةٍ من الاستهلاك العبثي، ولا تقدِّم بدائلَ جديّةً لنموذج الشركات الطاغية الحاليّ الذي أَشْبَهُ ما يكون بالأخطبوط الذي يحتوي كلَّ الاختلافات ويُعطي القيمةَ الأولى لمفهوم أوحدَ قائمٍ على المصلحة والربح المادي وإنّي أُعفي القارئَ من وصفٍ مفصّلٍ للآثار السلبية التي يُلْحقها هذا

الخيار الوحيد الباقي

النموذجُ بنسيج المجتمع نفسه، حيث يغدو كلُّ شيء سلعةً ـ بما في ذلك الحبُّ والصداقةُ.

المثيرُ للقلق هو أنّ الحريات الديموقراطية في الولايات المتحدة تتراجع في حين يزداد تأثيرُ لوبي الشركات ومجموعاتِ المصالح الخاصة. والفسادُ مستشرٍ (حتى وفقًا للإحصاءات الرسمية)، وصارت حريةُ الصحافة مزحةً ثقيلةً ـ بل إنّني أجرؤ على مقارنة وسائل الإعلام الأميركية اليوم من حيث جرعتها الدعائية بوكالات الأنباء الرسمية العربية في الخمسينيات والستينيات... سوى أنّ وسائل الإعلام الأميركية تديرها الشركاتُ؛ وأعني الشركات التي لها مصلحةٌ أكيدةٌ في سياسات التوسع الأميركي، والشركاتِ التي تستفيد من إطعام الشعب وجبةً دائمةً من الأكاذيب ونكرانِ الحقائق وعقدةِ التفوُّق.

إذن، لماذا ينبغي أن نتّبعَ نموذجًا هو، في أحسن السيناريوهات، محفوفًا بالأزمات الخطيرة؟ فلو تحوّلَ العالم إلى مجتمعٍ استهلاكيٍّ كالمجتمعات الغربية فسنَخْتنقَ بكلّ ما في هذه الكلمة من معنى، وستَغْبق رائحتُنا بنتن التلوُّث، ولن يبقى لدينا مصادرُ طبيعيةٌ نستهلكها. وإلى هذا اليوم ليس ثمة إجاباتٌ على هذه المشاكل الخطيرة ـ بل إنّنا نكتفي بأن «نَدْعو لأندلسٍ إنْ حُوصِرتْ حَلَبُ» (كما يقول محمود درويش)

أعتقد أنّ بمقدورنا أن نتعلّم من النظام المهيمن حاليّاً على العالم، غير أنّ علينا أن نفعّلَ خيارًا جديّاً آخر من أجل أن نزيد العدالةَ الاجتماعية والأمنَ والحريةَ الشاملة. لقد جرّبنا، نحن البشرَ، أنظمةً مختلفةً على امتداد عقود، غير أنّنا فشلنا دومًا في أن نفعّل مثلَ ذلك الخيار. صحيح أنّنا قد لا نَبْلغ المجتمعَ الفاضلَ في السنوات القادمة، غير أنّ حاجتنا إلى تجريب شيءٍ جديدٍ ومفعَمٍ بالآمال ما زالت ملحّةً، بل يجب أن تكون ملحّةً. وإذا كانت هذه هي الحال، فمن المستحيل أن نجرّب خيارًا جديدًا ما دمنا تحت هيمنة نظامٍ أجنبيٍّ عاجز: نظامٍ يستغلّ مواردَ منطقتنا، ويُنْكر أزماتِه الداخلية، بل ويستخدم الشرقَ الأوسطَ من أجل حَرْفِ الانتباه عن تلك الأزمات.

إزاءَ هذه الوقائع لم يبقَ أمام الالم العربي إلاّ خيارُ مواصلة القتال من أجل استقلالٍ حقيقي ـ وهو ما يَفْرض بَذْلَ التضحيات؛ ذلك أنّه لا يُمْكننا الاستحمامُ إنْ كنّا نخشَى الماء. وقد يكون لبنانُ نموذجَنا الأعظمَ صحيحٌ أنّه قد يكون علينا خوضُ صراعاتٍ داخليةٍ كثيرةٍ، غير أنّني آمل أن تبقى المقاومةُ ناضجةً ومركّزة على هدفها الرئيسي فيما هي تتعامل مع تلك الصراعات، بدلاً من أن تنزلقَ إلى أفخاخ سياسيةٍ صغيرةٍ تَنْصبها المعارضةُ في طريقها. إنّ «التركيز» هنا يعني تطويرَ نظام اجتماعي ـ اقتصادي نابعٍ من تجارب المجتمع الخاصة، ويلبّي حاجاته، ويشدّد على صوْنِ العدالة لدى أضعف عناصره أيّاً كانت طائفتُهم ـ كلُّ ذلك مع الأخذ في الاعتبار مصالحَ الآخرين والحاجاتِ المختلفةَ للفئات الأخرى. كما أنّ دعمَ حوارٍ ديموقراطي بين الناس، ودعمَ النماذج الباقية غير الفاسدة، أمران حاسمان لتحقيق الأهداف المذكورة أعلاه؛ والشيء نفسه ينطبق على ضرورة العمل من أجل إدراج الآراء السياسية المختلفة ضمن بوتقة النضال. والأهمّ أنّ «التركيز» يعني إيجادَ نموذجٍ فعّالٍ راهنٍ لحماية الأرض للجميع.

غنيّ عن القول إنّ تطويرَ مثل هذا النظام البديل يتطلّب معادلةً مركّبة تأخذ في الحسبان العواملَ الحيوية الكثيرة الراهنة. إنّ التحدّي هائل، غير أنّ علينا أن نجرّب. والحقّ أنّ أمام المقاومة في لبنان فرصةً ذهبيةً اليوم، وينبغي ألاّ تضيّعها. فلقد ربحت الحربَ ضدّ العدوّ الخارجي؛ ومع أنّ الحرب من أجل تطوير الداخل تبدو أسهلَ كثيرًا بالمقارنة، فإنّ التحدّي ما زال ماثلاً.

فلسطين

هاني أبو أسعد

سينمائي فلسطيني